النخب التاريخية المغربية ونموذجية النخبة الفاسية

ذ. مولاي هاشم العلوي القاسمي
كلية الآداب. ظهر المهراز. فاس

عبّر المجتمع المغربي عن تطور تحددت فيه طبيعة التغيير كلما تعرض تاريخه لتحولات كبرى امتازت بالتحول والتجديد، وهذه الظاهرة لا توجد إلا في المجتمع المنفتح الذي يقبل الأخذ والعطاء والتطور والتغير، وهذا ناتج عن تأثير وتفاعل موقعه الاستراتيجي في مجتمعه الذي جعله الامتداد التاريخي في مسار التحول مع الزمن الذي يدافع عن الثوابت ويطورها إلى صفة خاصة به يتميز بها عن غيره من المجتمعات التي تجاوره أو تماثله في بعض الظواهر ولكن يختلف عنها في الموقع الاستراتيجي والهيكل البنيوي في نظامه و تمثلاته.

إن هذا الإطار الذي يعتبر حصيلة لصناعة التاريخ في المجتمع المغربي كان ذا خصوصية متميزة في المرحلة التاريخية التي عرفها المغرب ابتداء من القرن 7هـ/13م، إلى ما جاء بعده من المراحل إلى بداية القرن 14هـ/20م. ويعني هذا وضع التاريخ المغربي في هذه القرون والحقب الممتدة في عصر بني مرين وبني وطاس والسعديين والعلويين إلى حدود بداية عهد الحماية الأجنبية في المغرب.

وقد ساد في هذه الحقب نظام اجتماعي مغربي تميز بخصوصيته التاريخية على مستوى حياة المدن التاريخية فيه، أو مستوى المجتمعات القبلية المنتشرة في البوادي المغربية شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، فكانت مدن المغرب المعروفة آنذاك هي المتحكمة والمنمّطة لطبيعة الحياة وأشكال العلاقات والمسيرة والموجهة للحياة السياسية في هذا المغرب التاريخي، كما كانت البوادي مرتبطة وتابعة لهذه الحواضر المدنية، فكانت فاس هي مركز التوجيه والتنظيم للحياة العامة حضاريا وروحيا وسياسيا واقتصاديا، كما كانت مراكش هي المثيل الواضح لمدينة فاس

في الجنوب المغربي، فكانت فاس ومراكش تتجاذبان المظاهر الحضارية. وكل جهة من جهات هاتين المدينتين تعمل على تقليد حاضرتها والتحالف معها في كل توجهات الحياة.

وهكذا كان أهل فاس، وما تبعها من بوادي، يكون قوة متحكمة في التميُّز والترابط والتواصل كما كان أهل مراكش، وما ارتبط بها من بوادي يكون قوة تفاعلية تجاذبية متأطرة بخصوصية بارزة في الشكل والمضمون، ومن هذا التجاذب والتواصل صار واضحا في الإطار التاريخي، الذي حددناه سابقا، يكون نمط أهل فاس وما تبعها من بوادي ونمط أهل مراكش وما ارتبط بها من كيانات وتواصل، ولكن كان الجميع يحقق ويماثل الحقيقة المغربية الكلية، لا يستغني جانب عن جانب، وهذا ما فرض على البحث والتأطير العلمي الاجتماعي خصوصية فاس ومالها من تركيبة نخبوية اجتماعية، ومراكش وما تبعها من ظواهر خاصة بها اجتماعيا. إلا أن "الظاهرة الفاسية" تبرز في الأفق واضحة المعالم ذات بنية راسخة في العمق الاجتماعي المغربي، هذه البنية الإنسانية والبشرية تضرب في عمق المدينة وفي عمق الجهات المغربية عموما، حيث صارت نموذجا لكل تفوق اجتماعي وحضاري مما جعل من أهل فاس مقصدا لمن يروم التماثل الحضاري ويندمج في المجتمع المتميز صاحب الخصوصية التاريخية في المغرب.

وتؤكد المسيرة التاريخية لمدينة فاس من بداية العصر المريني الذي حددناه بالقرن 7هـ/13م، إلى ما جاء بعده من تحولات وتغيرات تؤكد الطابع الفاسي والمراكشي، على حد سواء، في كل جهة من جهات المدينتين. ويحملنا هذا الإطار على ضبط ما أنتجته التواصلات الاجتماعية للمدن المغربية في تاريخها الإسلامي الوسيطي.

غير أن بحثنا هذا يحملنا على حصر هذه الدراسة في التاريخ الاجتماعي الداخلي لمدينة فاس وما أفرزه من نخب اجتماعية في تركيبته البشرية والإنسانية، وللمعرفة العلمية

سنحدد أهم المرجعيات المصدرية لهذه الدراسة، وتزخر هذه المرحلة المحددة بالكتابات المصدرية التي تحيلنا على دراسة وقراءة هذا التاريخ الاجتماعي لمدينة فاس.

فالمرجعيات الأساسية والأصيلة يمكن أن نصنفها إلى الأنواع الآتية :

أ- كتب الأنساب التي خصت فاس وأسرها الاجتماعية بالتحديد والتصنيف، ويمكن أن نخص منها الأسماء الآتية :

1- كتب ومؤلفات ابن الأحمر وخاصة "بيوتات فاس الكبرى".

2- كتاب "نصح ملوك الإسلام" لابن السكاك وخاصة المصنف المطبوع منه وهو الذي وصلنا من هذا الكتاب الذي يوجد فيه مؤلف أكبر وأوسع.

3- مؤلفات القادرية مثل "الدر السني" لابن عبد السلام القادري ومؤلفات محمد بن الطيب القادري مثل "نشر المثاني" و"التقاط الدرر".

4- كتاب "الدرر البهية" لعبد السلام الفضيلي.

ب- المؤلفات التي اهتمت بالبيوتات العامة في داخل مدينة فاس مثل كتاب "زهرة الآس في بيوتات أهل فاس" للكتاني وكتاب "روضة الآس" للمقري.

ج- كتب التراجم ومؤلفات الحوليات ومنها من خص مدينة فاس بالتأليف كما فعل الكتاني في "سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء في مدينة فاس." وهناك من اهتم بالتاريخ العام ومدينة فاس حسب السياق المؤدي إلى ذلك، ونذكر منها بوجه خاص "مناهل الصفا" للفشتالي و"الاستقصا" للناصري. وهناك مرجعيات سنذكرها في سياق تحليل الموضوع كما سيأتي. ووفقا لذلك، فإن التاريخ الاجتماعي لمدينة فاس يحدد لنا الأرضية التي فرضتها طبيعة المتغيرات التي عرضت لمدينة فاس عبر تاريخ المدينة في المرحلة التي حددناها سابقا من هذا البحث.

وقد تعرضت مدينة فاس لتأثيرات خارجية من كل الجهات القريبة والبعيدة من المدينة من المشرق ومن الأندلس، ومن إفريقيا ومن مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط، فهي مناط التواصل ومركزية الجذب والتفاعل. لقد استحكمت فيها المؤثرات الداخلية والخارجية وصنعت من كل ذلك كيانا داخليا يمتد في عمق التاريخ الاقتصادي والتاريخ الروحي الديني، والامتدادات التي شكلتها طبيعة التفاعل الممتد تأثيره واستحكامه في كل جهات المغرب بحيث تظل مدينة فاس في كل واجهة من هذه الواجهات حاضرة بتاريخها وعمقها الحضاري عموما، فالفاسي يمثل كيان المدينة، بذاتها ومكنونها وكنهها، ولا يحدث العكس، بمعنى أن القادم من فاس ينعكس الحضور الحضاري في ذاته وفي واقعه انعكاسا كليا، إذن تعني النخبة في هذا السياق معناها الحضاري في حمولتها التاريخية على امتداد الزمن الذي حددناه.

ورغم أن المؤثرات السياسية قد أثرت في التحول الداخلي، إلى حد ما، فإن البعد الاجتماعي الفاسي ظل حاضرا وقائما رغم العزلة السياسية، ونعني بذلك ما حدث في العصر السعدي عندما انتقلت العاصمة من المدينة الفاسية إلى المدينة المراكشية، فقد ظلت فاس في تفوقها الحضاري بارزة في العصر السعدي وإن كان قصر البديع في مراكش يحاول أن يتفوق على قصر باب السبع في المدينة البيضاء من فاس.

ظلت النخب الفاسية في مستواها وتنظيماتها الاجتماعية على تمثلاتها قائمة في التنافس الإيجابي الذي تكلمت عنه المؤلفات التاريخية بين المدينتين، فاس ومراكش، ونشير هنا إلى ما مثله قاسم الزرهوني والعريفة بنت خجو في نقل التوصيفات الملوكية للبلاط السعدي الذي حمل كل ذلك من فاس إلى مراكش، وما عمل على إعادة ترتيبه علماء فاس في مدينة مراكش عندما كان أحمد المنصور الذهبي السعدي يعقد مجالسه العلمية، وكانت الصدارة في كل ذلك لفقهاء فاس المتصدرين لمجالس أحمد المنصور الذهبي مثل الفقيه أحمد المنجور والإمام القصار، وقد أحدث ذلك تواصلا توأميا بين فاس ومراكش.

وبناء على هذه المرجعيات، يمكن أن نلقي نظرة عامة ونخصص البيوتات بالتحليل والتأصيل، إلى حد ما، غير أن جذور هذا البناء الاجتماعي النخبوي الداخلي لمدينة فاس لا تبتدئ مباشرة من القرن 7هـ/13م، وإنما نشير إلى ما كانت عليه المدينة قبيل هذا التاريخ.

وفدت على مدينة فاس جموع بشرية من كل الآفاق، وقد احتضنت بوجه خاص أهل الأندلس الذين جاؤوا إليها عندما تعرضت المدن الأندلسية للطرد والاعتصار مع حرب الاسترداد، وقد كان ذلك واضحا في نهاية عصر الموحدين وأوائل المرينيين حيث صارت ملجأ للأسر الفارة بدينها ومالها، واستقروا في كل أحيائها مكونين مجموعات بشرية أندلسية مما زاد في ديمغرافية المدينة، ووسع في بنيانها وعمرانها وتعميرها، وخلق منها مدينة اجتمعت فيها خصوصيات الحضارة الأندلسية من قرطبة وإشبيلية وغرناطة وغيرها من الحواضر التي تمثلت في مدينة فاس على مستويات متفاوتة.

ويظهر أن الأسر المهاجرة إلى فاس كانت، في غالب الأحيان، أسرا أرستقراطية غنية كما كانت توجد إلى جانبها بيوتات حرفية وصنائعية نقلت إلى المدينة طبيعة ونظام حياتها اليومية في الأندلس إلى فاس، وقد لفت ذلك نظر الذين أرخوا واهتموا بتاريخ الأسر الفاسية.

ويمكن أن نحيل هنا على ما جاء عند ابن الأحمر في كتابه الذي يخص البيوت والأسر بالتدوين والتأليف، وما وصلنا من كتاب "بيوتات فاس الكبرى" يمثل إشارات خفيفة من النماذج التي كانت تعيش وتسكن فاس في العصر المريني، مع ملاحظة أن تلك البيوتات تحمل أسماء أمازيغية وعربية وأندلسية. كما اهتم ابن السكاك في كتابه "نصح ملوك الإسلام" بالأنساب والجماعات التي استقرت بفاس على وجه الخصوص، وقد حاول أن يصل جذور تلك المجموعات البشرية بأصولها النسبية في المشرق والأندلس وبلاد المغربين الأدنى والأوسط، وكان على بينة من تلك الأنساب ومسألة صحة النسب أو ادعائه، غير أن المرحلة التي عاصرت أواسط بني مرين، أي بعد منتصف القرن 8 هـ، ظهر فيها نوع من التداخل

ومراجعات أنساب الجماعات الوافدة على مدينة فاس، وخاصة من بلاد المشرق الإسلامي حيث وافق ذلك هجرة عدد من الأسر إلى المغرب بعد الزحف المغولي والتتاري على بلاد المشرق، ففر عدد كبير من القبائل والعائلات التي تمت متابعتها ومطاردتها، وهذا ما يفسر انتساب الأسر الفاسية بعد العصر المريني إلى أصولها في المشرق إما من الجزيرة العربية أومن العراق أو بلاد الشام، فقد سكنت فاس أسر لها شأن نَسبي جعلها تجتمع في موضوع الشرف الذي اعتبره بنو مرين أحد العناصر التي ترفع من شأن أصحابه.

وهكذا كان "الأشراف" في العصر المريني قوة روحية ومعنوية ومادية، فقد أعفاهم سلاطين بني مرين من أداء الكلف المخزنية وصارت الدولة تصلهم بالصلات والعطايا والهدايا[1]، بل كان تصرف سلاطين بني مرين يمثل في الدولة سياسة خاصة يمكن أن ننعتها بسياسة حق الأشراف في تصرف الدولة المرينية، وهو شيء يعتبر فاعلا في مسيرة الحياة في الدولة المرينية، فلم تكن العملية خاصة بمدينة فاس، وإنما عمت سائر الحواضر والبوادي.

وتطورت هذه النظرة إلى الأشراف تطورا داخليا في المجتمع المغربي وكانت صفة القداسة وطابع الارتفاق الروحي مرتبطا بظاهرة الشرف، وكان للتصوف ونشاط رجاله وشيوخه دور فعال في تأصيل الظاهرة الشرفية بمالها من حمولات روحية وقدسية واعتبار وصلة بالبيت النبوي الشريف، فأصبح الشرف رمزا للامتداد الإسلامي الذي يؤهل الدولة المغربية في حياتها وبيعة الملك في المجتمع المغربي.

وعلى هذا الأساس، بدأت عملية ضبط الأنساب في المراحل المتأخرة من عصر بني مرين، وما جاء بعده. وبإلقاء نظرة على المؤلفات التي أنتجتها المراحل اللاحقة من كتب مناقب ومؤلفات الأنساب، نجد الطابع التاريخي واضحا يضبط صحة الأنساب ويتحدث عن انتشار الرجال المنتسبين إلى الشرف في كل جهات المغرب، وكانت فاس هي القوة

[1] – انظر في هذا الصدد كتاب القرطاس لابن أبي زرع و الاستقصا للناصري وأزهار الرياض ونفح الطيب للمقري.

الفاعلة في توجيه هذا التنظيم بحيث زكى العلماء في القرويين هذا التوجه العام لأشراف مدينة فاس، وما انتشر منهم خارج المدينة معتمدين على المؤلفات الأندلسية مثل "جمهرة أنساب العرب" لابن حزم ومثل كتب الأنساب المشرقية، وبدأ على أساس ذلك إنتاج المؤلفات التي ترتبط بعملية توثيق الأنساب وتحديد البيوتات التي كان لها شأن في تسيير المجتمع وبروز الحياة العامة والخاصة، وقد تداخلت هاته العملية مع الإشارة إلى رجال الدولة وتوثيق انتسابهم إليها وتزكية مقصدهم الذي يحدد فعالية كل عنصر وكل من ارتبط بخدمة السلطان أو رجال الدولة على مالهم من أهمية وما كان لهم من نباهة واعتبار في شؤون الحياة في الدولة المغربية

فكانت الهجرة تزداد، وكان علماء الأندلس والأسر الشريفة من المشرق يسارعون إلى مدينة فاس، وازداد الأمر قوة في عصر بني مرين، إلا أن انعكاس هذا على مدينة فاس لم يبدأ إلا بانتقال البيوتات الغنية والمشهورة إلى مدينة فاس والمغرب عموما، وكان المقصد الآمن هو مدينة فاس، فهي موطن العلم الذي هاجر رجاله بدورهم إليها، بالإضافة إلى رجال التصوف وخبراء التجارة وكبراء أهل العلم والدين، وقد أعطى هذا الوضع زخما جديدا لحياة المدينة فبدأت "النخب الاجتماعية" تتبلور، وبدأ الاستقطاب التجاري يقوى ويتنافس مما فرض على المؤلفين المغاربة عملية التمييز بين البيوتات الشريفة والبيوتات التي لا تدعي الشرف وإنما تعتبر أرستقراطية بارزة في المدينة، ونجد ذلك واضحا في مؤلفات الأنساب المتأخرة وأحسن من يمثل ذلك كتاب "الدرر البهية" لعبد السلام الفضيلي.

فالمجتمع الفاسي يعتبر قوة حضارية اجتماعية في بيوتاته وأسره وتجمعاته البشرية على اختلاف مشاربهم وانتساباتهم وفئاتهم الاجتماعية.

العنوان: النخب الفاسية
المصدر: أشغال الأيام الوطنية السادسة عشرة - فاس والمجالات الحضرية بالمغرب: التاريخ والتراث والمجتمع
الناشر: الجمعية المغربية للبحث التاريخي
مؤلف: هيئة التحرير(عارض)
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 2008
مكان انعقاد المؤتمر: المغرب
الهيئة المسؤولة: الجمعية المغربية للبحث التاريخي - المغرب
الشهر: نوفمبر
الصفحات: 13 - 68
رقم MD: 598795
نوع المحتوى: بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات: HumanIndex
مواضيع: الإستعمار الفرنسي ، النخب ، فاس، المغرب
رابط: http://search.mandumah.com/Record/598795